مفهوم الصراع في الشعر العربي(شعر الخوارج انموذجا)

م.م.سعد صابر نمال
جامعة الانبار- كلية التربية للعلوم الصرفة

المستخلص
الصراع ضرورة بشرية تقتضيها الحياة في جميع نواحيها المختلفة، فهو شعور فردي وجماعي على حد سواء، ويتخذ الصراع من الشخصية المحور الأساس والمهم لها، ومعرفتها أمر ضروري ومُلِحّ للشروع في دراسة النص الشعري، فالشعور بالظلم أو عدم إشباع النفس لما تريده يؤدي إلى الصراع الداخلي مما يولّد توترًا وهو في أبسط معانيه صفة أو خاصية لموضوع بيئي أو لشخص تيسّر أو تعوّق جهود الفرد للوصول إلى هدف معين[١]
من المعلوم أنّ الصراع هو أحد الدوافع التي تدفع الفرد نحو تحقيق غايات وأهداف، سواء أكانت سلبية أم إيجابية، ويُعرّف شابلن الصراع بأنه «التواجد المتزامن لدافعين متناقضين أو أكثر عند نفس الفرد أو نفس الجماعة»[٢]، وهو أمر لا يتعلق بالفرد حسب، بل يتعداه إلى الجماعة، ويبقى أن ننظر إلى الصراع على أنه ضرورة حياتية مهمة تدفع الفرد نحو أهدافه التي رسمها لنفسه بعيدًا عن سلبياتها وإيجابياتها.

الكلمات الرئيسيه: الشعر العربي, دراسه وتحليل, ثيمة الصراع

Abstract
Conflict as human necessity required by life in all the different aspects, it is individually and collectively both feeling, take the conflict of personal axis basis and it is important to her, and knowledge is essential and urgent to embark on a study of the poetic text , feelings of injustice or not satisfy the self what you want, lead to internal conflict , which It generates tension in the simplest sense , a recipe or property subject to environmental or

[١] ينظر: نظريات الشخصية، كالفن هول: ٧٤.
[٢] علم النفس الاجتماعي، شاكر محاميد: ١٤٦.

someone facilitate or hinder individual efforts to reach a particular goal .

It is known that the conflict is one of the motives that drive the individual towards achieving the goals and objectives , whether positive or negative , and knows Chaplin conflict that « simultaneous defenders contradictory or more when the same person or the same group presence » , which is not related to the individual , but also to the community , and it remains to look at the conflict as important life need to pay towards the individual goals set by himself away from the negatives and positives .

Key Words: Arabic Poetry, Interpretation, Theme of Conflict

مدخل:

يتحدد مفهوم الصراع بأنه عبارة عن صراع الشخص مع نفسه وذاته حين يكون فرديًّا، وربما يعد هذا النوع من الصراع أشد الأنواع تأثيرًا على النفس لكونه صراعًا داخليًّا يؤدي في كثير من الأحيان إلى الضعف والإحباط والاستكانة، أما الصراع الخارجي فيكون خارج ذات الإنسان، وربما يكون بين شخصين أو أكثر أو الإنسان ومجتمعه، وربما يكون هذا النوع من الصراع شكّل نفسية الخوارج؛ لكونه يحض على حب السيطرة وهزيمة الخصم شرطًا حاسمًا للتوصل إلى الهدف[١].

ويعد الصراع في الشعر بأنه تصور ينشئ موقفًا أيدولوجيًّا محددًا يظهر فيه موقفه الشخصي، منطلقًا من آرائه العقائدية التي ينطوي تحتها الدين[٢].

والصراع الشعري يعد صراعًا نفسيًّا واجتماعيًّا وفكريًّا تعمل هذه العناصر مجتمعة على تشكيل صراع الفرد والجماعة.

والصراع في نفس الشاعر الخارجي كان يعج بتنوعاته التي فرضتها الحياة المضطربة بكل متغيراتها، إلا أنّ الصراع الفكري والاجتماعي كان له الدور البارز في النفس، وكثيرًا ما يتداخل الصراع من الوجهة النفسية والسياسية بظاهرة الخوف من الحياة الطويلة دون تحقيق الأهداف.

---

[١] ينظر: قاموس علم الاجتماع، محمد عاطف عفيف: ٨٢.

[٢] ينظر: حركية الصراع في القصيدة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ناظم حمد: ٣٦.

إننا لو عدنا إلى شعر الخوارج لوجدنا أنّ الصراع يتجلى واضحًا بعناصره الثلاثة (النفسية والاجتماعية والفكرية). وكثيرًا ما نجد أنّ الشاعر الخارجي تضطرب نفسيته وتتحكم فيه عادات وتقاليد دينية واجتماعية شكّلت فكره الذي يعد فكرًا متشدداً، فقد شكلت الظروف البيئية والاجتماعية التي عاشوا فيها بعيدًا عن مركز الحضارة والتأثر بها، فبقيت العادات والتقاليد البدوية القاسية هي المسيطرة عليهم، مما جعلهم يفهمون الدين فهمًا متزمتًا، فنشأ لديهم فكر لا يدع للنقاش مجالاً.

وإذا أردنا أن نقف عند جدلية الصراع في شعر الخوارج فإنّ علينا أن نعرف مدى تأثير الصراع في تجارب الشاعر الحياتية وعلى وفق الآتي:

أولاً: جدلية الصراع في تجارب الشاعر الخارجي الحياتية:

إنّ جدلية الصراع في تجارب الشعراء الحياتية من أبرز المقومات اللازمة للدخول إلى عوالمهم الفكرية والنفسية لهذه الطائفة من شعراء أدبنا العربي عاشوا ظروفًا اجتماعية وسياسية وفكرية كوّنت فكرهم الذي انعكس على أدبهم.

وتعد تلك التجارب الشعرية للخوارج قواسم مشتركة وبارزة في لغتهم وألفاظهم وتراكيبهم وأبنيتهم، وحين نقرأ لأي شاعر من الخوارج لا نجد فرقًا مع الشعراء الآخرين، فلغة التعبير والإحساس واحدة، فضلاً عن الدلالات التي تؤدى إليها طرائق الاستخدام الفردية الخاصة بكل شاعر أو الجماعة نفسها.

وللوقوف عند مفهوم الصراع في تجارب الشعراء الحياتية سوف نركز على هذا المفهوم على وفق الآتي:

أ. جدلية القيم الاجتماعية والأخلاقية:

من المعلوم أنّ الشعراء الخوارج عاشوا ظروفًا اجتماعية وفكرية وسياسية مشتركة، فهم من قبائل بدوية سكنت البوادي وآمنت بأفكار واتجاهات واحدة، حتى إنهم أدركوا أنّ مصيرهم واحد، لذلك نجد أنّ المطّلع على شعرهم يرى وحدة من الأفكار تجمعهم، وقد أطلق الدكتور إحسان عباس تسمية (وحدة الخصائص)، فكل واحد منهم يمكن أن يقال فيه ما يقال في الآخرين، وهذه الخصائص تتمثل في كل فرد على حدة، كما تتمثل في الجماعة[١].

إنّ جدلية القيم الأخلاقية والاجتماعية تكاد تكون عاملاً مؤثرًا وموجهًا في شعرهم أو لنقل عند الخوارج عامة، فالخارجي شخص آثر أن يكون مثالاً للخُلق السامي والرفيع كما هم يرونه، لذلك فإنّ هذا المجتمع المثالي يريد من كل فرد من أفراده أن

[١] ينظر: ديوان شعر الخوارج، د. إحسان عباس: ٢٠ (التمهيد).

يكون مثالاً في العبادة والزهد والخُلق العالي والعبادة المتواصلة، وغير ذلك من الأمور التي رسمها جماعتهم، فلنسمع قطري بن الفجاءة يقول:

لَشَـتّانِ مـا بَـينَ ابـنِ جَعـدٍ وَبَينَنـا إذا نَحـنُ رُحنـا فـي الحَديـدِ المُظـاهَرِ

نُجالِـدُ فُرسـانَ المُهَلَّـبِ كُلُّنـا صَـبورٌ عَلـى وَقـعِ السُّـيوفِ البَـواتِرِ[١]

فجدلية الصراع الفكري واضحة في ألفاظ الشاعر، فهم قوم نذروا أنفسهم للموت ومجالدة الأعداء، وإنّ الخروج عن هذه المبادئ يعد مرفوضًا.

وتبدو صورة الصراع واضحة في شعر قطري، يقول:

حُفاةً عُراةً وَالثَّوابُ لِرَبِّهِم فَمِن بَينِ ذي رِبحٍ وَآخَرَ خاسِرِ

فَراجِع أَبا جَعدٍ وَلا تَكُ مُغضِيًا عَلى ظُلمَةٍ أَعشَت جَميعَ النَّواظِرِ

وَتُب تَوبَةً تُهدي إِلَيكَ شَهادَةً فَإِنَّكَ ذو ذَنبٍ وَلَستَ بِكافِرِ[٢]

يتحرك هذا الحوار الذي يرسمه قائد من قادة الخوارج وهو قطري بن الفجاءة في إطار الولاء المطلق، فهو يدعو (أبا جعد) أحد الخوارج إلى العودة إلى صفهم بعد تركهم، إذ يتخذ الصراع هنا في قدرة هذا القائد على التعرف على شخص في اتباعه، وإذا ما حدث شيء يمكن أن يعرقل الهدف المنشود، وهذا هو المعيار الأساس في هذا الصراع[٣]، الذي يشير إلى إمكانية الانفتاح على كل ما يثير الآخر بصورة يمكن من خلالها التأثير عليه بصورة إيجابية.

ويرفض الخارجي كل ملذات الحياة متخذًا من هذا الصراع معها مؤشرًا على ذلك الولاء للمذهب والمعتقد، فهو يرفض أن يكون مع حبيبته وداعي الحرب يناديه، يقول زياد الأعسم:

تُعـاتِبُني عِرسـي عَلـى أَن أُطيعَهـا وَقبـلَ سُـلَيمى مـا عَصـيتُ الغَوانِيـا

---

[١] ديوان شعر الخوارج: ٢٢١

[٢] م . ن: ٣٠٩

[٣] ينظر: علم النفس الاجتماعي: ٢٧١.

فَكُفّـي سُـلَيمى وَاترُكـي اللَّـومَ إِنَّمـي أَرى فِتنَـةً صَـمّاءَ تُبـدي المَخازِيـا

فَكَيـفَ قُعـودي وَالشَّـراةُ كَمـا أَرى عَـزينَ يُلاقـونَ البَلايـا الـدَّواهِيا[1]

يتجاذب الشاعرَ صراعان صراع البقاء مع حبيبته وصراع الالتحاق بالخوارج في ساحات الحرب، وعلى الرغم من أنه عريس إلا أنه يفضل أن يترك أهله ملبيًا نداء الجماعة، وهذه الأحكام والمعايير التي يحتكم إليها الخارجي إنما قوة ضاغطة موجهة لسلوك الفرد نحو تلك الجماعة، وأي تغيير من هذه الجهة في علاقاته بفقده هويته وخصوصيته كما يقول أرك مروم[2].

ولعل الانتماء الذي يشكل قوة ضاغطة على الفرد تجبره على الإيمان المطلق بتلك المبادئ الاجتماعية من أقسى التجارب الاجتماعية التي يعيشها الفرد ولا سيما الشاعر، وفي نص الأعسم نجد أنّ الحواريشكل طبيعة ذلك الصراع، فقد شكّل المشهد العام في هذه الأبيات، إذ إنّ جدلية البقاء والموت لا تعني عند الخوارج شيئًا، إنهم وُلدوا لكي يموتوا، فهذا المنجز الأخلاقي والاجتماعي يكاد يسيطر على حياتهم، فكان الموت بمثابة الخلاصة العامة التي مثلت شخصيتهم، فضلاً عن العوامل السياسية الضاغطة على فكرهم ونتاجهم الشعري.

ولعل جدلية القيم الاجتماعية والأخلاقية في تجارب الشعراء الخوارج يتجاذبها طرفان، الأول فكري، والآخر عقائدي، يشتمل المنجز الأول على اعتقاد الخوارج الأخلاقي والاجتماعي بأهمية الولاء لهذا المذهب، وعدم التخلي عن مبادئهم مهما قست الظروف أو توالت الأحداث، وهذا يعني أن الخارجي يموت ولا يتخلى عن مذهبه الذي آمن به وضحّى من أجله. أما المنجز الآخر فهو عقائدي يتمثل في طبيعة فهم الخوارج للدين الإسلامي والعبادة القاسية والضغط على النفس في سبيل الارتقاء الروحي، فالحياة لا تعني لهم سوى باب يدخلون منه ليخرجوا من الحياة قتلى في سوح الحرب، يقول عمرو بن الحصين العنبري:

تَـرّاك مـا تَهـوى النُّفـوسُ إِذا رغـبُ النُّفـوسِ دَعـا إِلـى المُـزري

وَمُبـرأ مِـن كُـلِّ سـيِّئَةٍ عَـفّ الهَـوى ذا مـرَّةٍ شـزرِ

[1] ديوان شعر الخوارج: ٢٠٨.
[2] ينظر: الإبداع في الفن، قاسم حسين صالح: ٦٢.

لا شَـــيءَ يَلقـــاهُ أَسَـــرَّ لَـــهُ مِـــن طَعنَـــةٍ فـــي ثغـــرَةِ النّحـــرِ

لا شَـــيءَ يَلقـــاهُ أَسَـــرَّ لَـــهُ مِـــن طَعنَـــةٍ فـــي ثغـــرَةِ النّحـــرِ

نَجـــلاء مُنهـــرة تَجـــيشُ بِمـــا كانَـــت عَواصـــي جَوفِـــهِ تَجـــري[1]

لا جرم أنّ هذا النص كان ينطبق على الشعراء، فكل شخص يؤمن بهذه المواقف، فصورة الصراع هنا تكاد تكون أحادية الجانب، فالجزء الواضح في هذه الجدلية يقوم على رفض القعود عن الحرب من أجل الشهادة بضربة سيف، ولا يقف الأمر عند ضربة تقتل بل هذه الضربة لا تشفي العليل إلا إذا كانت واسعة تنهش اللحم والعظم لتطهر النفوس من الآثام.

وربما كانت للمواقف المشحونة بالأسى والحزن والإشفاق من القعود عن الحرب يلجأ الشاعر إليها لتأكيد هذا الأمر مستخدمًا ما تقدمه اللغة له من إمكانيات من خلال إيجاد «اللغة التي يقتضيها الموقف ويتلاءم وإياها»[2].

ومن هنا وقعت على الشاعر الخارجي وظيفة تمجيد الخوارج من خلال بيان قوتهم وقدرتهم في الدفاع عن الدين والمبادئ الاجتماعية والأخلاقية التي جُبل عليها العرب.

وصور الصراع تختلف من شاعر إلى آخر، فبعضهم يقنع نفسه بأنّ عليه أن لا يُظهر الضعف ولا سيما إذا كان قائدًا وموجهًا، فهذا قطري بن الفجاءة يبين لنا في حوار داخلي مع نفسه إذ تصارعه في البقاء، يقول:

أَقـــولُ لَهـــا وَقَـــد طـــارَت شَـــعاعًا مِـــنَ الأَبطـــالِ وَيحَـــكَ لَـــن تُراعـــي

فَإِنَّـــكِ لَـــو سَـــأَلتِ بَقـــاءَ يَـــومٍ عَلـى الأَجَـلِ الَّـذي لَـكِ لَـم تُطـاعي

فَصَـــبرًا فـــي مَجـــالِ المَـــوتِ صَـــبرًا فَمـــا نَيـــلُ الخُلـــودِ بِمُســـتَطاعِ[1]

[1] ديوان شعر الخوارج: ٢٤٨.
[2] فن الشعر، أرسطو: ١١١.

إنّ هذا الخطاب القائم على حوارٍ مع النفس يُظهر تناقضات عدة، هم بشر أولاً وآخرًا ولكن على الرغم من ذلك لا تظهر في النص أي إشارة إلى أنّ هذا القائد ممكن أن يفكر بالتراجع، إنه صراع أخلاقي واجتماعي، فهؤلاء الطبقة من الناس لا تستكين ولا تلجأ للخنوع حين ينادي منادي الحرب، وعلى الرغم من أنّ نفسه تحثه على البقاء، إلا أنه يرفض الاستسلام لها، فهذا الصراع الداخلي هو صراع طبيعي حياتي مع كل البشر.

من المعلوم أنّ الخوارج نذروا أنفسهم للموت فهم وُلدوا لكي يموتوا ضربًا بالسيوف أو طعنًا بالرماح، لكن يبرز في بعض أشعارهم صراع نفسي داخلي بين الذهاب إلى الموت وحب البقاء، وفي ثنايا هذا التجاذب تتجلى فكرتان، أولاهما تشير إلى طبيعة هذا المذهب الديني المتشدد، والآخر تنبعث من فكرة حب الحياة رغم كل شيء، وهاتان الفكرتان تعمقان الصراع بين الشاعر وذاته كما أنهما تنبعان من تناقضات داخلية وخارجية، فهذا الشاعر عمران بن حطان يتخذ من جمرة معادلاً موضوعيًّا لذاته، وهذا «الحوار بأسلوب التجريد وجد فيه قدرة فاعله على التعبير ومجالاً رحبًا لمخاطبة ذاته»[٢]، ويقول الدكتور إحسان عباس: لقد كانت حياة الخوارج عبارة عن صراع سياسي وفكري، فهم آمنوا بأنّ الموت هو قدرهم، وعلى الرغم من أنّ هذا الأمر شكّل فكرهم، إلا أنّ الصراع الداخلي في نفس الشعراء تبرز بوضوح عندهم ولا سيما الشعراء الذين أحبوا، يقول الدكتور إحسان عباس: «ومرة أخرى تقف جمرة والموت متقابلين في نفس عمران، فيثير هذا التقابل نغمة من أشجى النغمات في الشعر الخارجي»[٣] يقول:

إن كُنتِ كارِهَةً لِلمَوتِ فَارتَحِلي ثُمَّ اطلُبي أَهلَ أَرضٍ لا يَموتونا

فَلَستِ واجِدَةً أَرضًا بِها بشَرٌ إِلّا يَروحونَ أَفواجًا وَيَغدونا

يا جَمرَقَد ماتَ مِرداسٌ وَإِخوَتُهُ وَقَبلَ مَوتِهِمُ ماتَ النَبِيّونا

يا جَمرلَو سَلِمَت نَفسٌ مُطَهَّرَةٌ مِن حادِثٍ لَم يَزَل يا جَمرُيُعيينا[٤]

---

[١] ديوان شعر الخوارج: ١٢٢-١٢٣.
[٢] شعر الخوارج دراسة أسلوبية، د. جاسم محمد عباس: ٦٤.
[٣] ديوان شعر الخوارج (التمهيد): ٣٢.
[٤] ديوان شعر الخوارج: ١٦٠.

النص يقوم على تقنية (الموتولوج) إنه حديث الشاعر نفسه، وعلى الرغم من أنه يبدو ظاهريًّا حديثًا مع حبيبته، لكن نلحظ كيف تسيطر المفارقة الساخرة في هذه الأبيات من خلال «إبراز موقف الشاعر تجاه ذاته المضطربة التي يحاصرها بأسلوب ساخر ... وهذه الرؤية تأخذ طابعها الفكري والفلسفي من نظرة الإنسان إلى العالم والحياة»[١]. فضلاً عن طابعها الأخلاقي والاجتماعي الذي آمن الخوارج به من خلال بذل النفس من أجل المبادئ والقيم التي ضحوا وبذلوا أرواحهم رخيصة من أجلها.

إنّ الموت قد شغل بال الخوارج وتفكيرهم، وقد أثار في أنفسهم المضطربة تساؤلات حائرة عن جدلية الحياة والموت وسر الفناء.

ومن المعلوم أنّ الشعر الخارجي يدور في فلك الشعر الذي خصص جزءًا كبيرًا منه بالحديث عن الموت والجنة والنار وبذل النفس من أجل المبادئ التي آمنوا بها، وكل ذلك تمّ التعبير عنه بلغة واضحة، فهم يحاولون «تقرير حالة ذهنية وصفية معنوية في مشاهد بيئية، وذلك لحرصهم على الوضوح والإبانة ولتكون أشد وقعًا وتأثيرًا في المتلقي»[٢].

ويبرق لهم الموت في حكمته على أنه المخلّص الوحيد لما يعانونه من قسوة الحياة وظلمها، وهو «على هذه الصورة في الاستشهاد من أنجع الوسائل في مقاومة الحياة السيئة والعيش الزائف، ولا سبيل إلى الانتصار على هذه الحياة إلا بالموت»[٣].

ولعل هذا لم يكن مقصد الشاعر ليجني من ورائه صياغة أفكار فلسفية بل كانت تشكل هاجسًا لديهم بأن الموت النهاية الحتمية للحياة.

ونلمح من خلال قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية صراعًا شعريًّا بين المتناقضين (الحياة والموت)، يقول أحد شعراء الخوارج:

ومن يخشَ أظفارَ المنايا فإننا لَبِسنا لهنَّ السابغاتِ منَ الصَّبْرِ

وإنّ كريهَ الموتِ عذبٌ مذاقُهُ إذا ما مزجناه بطِيبٍ من الذِّكْرِ

وما رُزِقَ الإنسانُ مثلَ منيّةٍ أراحت من الدنيا ولم يخزَ في القبرِ[١]

---

[١] شعر الخوارج دراسة أسلوبية: ٥٥.
[٢] الصورة البنائية في الشعر العربي، أطروحة دكتوراه، ساهرة عبد الكريم: ١٧٣.
[٣] الفرق الإسلامية في الشعر الأموي، النعمان القاضي: ٤٣٩.

يستمد النص بنيته الفلسفية والفكرية من نظرة الخوارج إلى الحياة والموت، فالأخير هو الدواء الناجع والمخلِّص الوحيد من الأدران، ولعل الإحساس بلذة الموت هي شكل من أشكال التعبير عن وجوده وإثبات ذاته، ولهذا فقد شكّل الموت هاجسًا للصراع الداخلي، فتقوم عناصره على تحقيق أكبر طاقة ممكنة من المتعة الحسية التي يجسدها الموت.

ولنستمع إلى شاعر خارجي آخر يصور متعة الموت وهو يقول:

مَـــن كـــانَ يَكـــرَهُ أَن يَلقـــى مَنِيَّتَـــهُ فَـــالمَوتُ أَشـــهى إِلـــى قَلبـــي مِـــنَ العَسَـــلِ

فَـــلا التَّقَـــدُّمُ فـــي الهَيجـــاءِ يُعجِلُنـــي وَلا الحِـــذارُيُنَجّينـــي مِـــنَ الأَجَـــلِ[٢]

لا ينفع الحذر من الأجل صورة الصراع قائمة على تصوير حتمية الموت، فهو واقع لا محالة، ولكن الموت هنا عند الخوارج يأخذ شكلاً آخر من أشكال الصراع النفسي والفكري، إنه الغاية التي يطلبونها، فإذا الموت عندهم أشهى إلى القلوب من العسل، فالصراع بين الحياة والموت قضية محسومة، فهم لم يفكروا بالحياة مما جعل الموت لديهم يفرض واقعه عليهم، فهم قد أظهروا الموت بكل الصور والأشكال التي أحسوا بها، ولعل شمولية الموت في هذا المجتمع قد تلاشت معه كل الفروق والامتيازات.

ولهذا فقد ظهر نوع من الصراع الجدلي بين الحياة والموت في الشعر الخارجي ارتبط بالفكر أكثر من ارتباطه بالواقع، أي إنّ الخوارج سعوا إلى الموت سعيًا، مما شكّل فكرًا آمنوا به وضحوا من أجله الكثير، ولعل الأبيات السالفة تقدم للقارئ صورة شعرية مجسدة لحقيقة هذا الصراع الجدلي، فالحياة لم يقفوا أمامها كثيرًا، فهي زائفة خادعة لم يركنوا إليها، يقول قطري بن الفجاءة:

أَقـــولُ لَهـــا وَقَـــد طـــارَت شَـــعاعًا مِـــنَ الأَبطـــالِ وَيحَـــكَ لَـــن تُراعـــي

فَإِنَّـــكِ لَـــو سَـــأَلتِ بَقـــاءَ يَـــومٍ عَلـى الأَجَـلِ الَّـذي لَـكِ لَـم تُطـاعي

فَصَـــبرًا فـــي مَجـــالِ المَـــوتِ صَـــبرًا فَمـــا نَيـــلُ الخُلـــودِ بِمُســـتَطاعِ

ومـــا للمـــرءِ خيـــرٌمـــن حيـــاةٍ إذا عُـــدَّ مـــن ســـقطِ المتـــاعِ[١]

---

[١] ديوان شعر الخوارج: ٦٥.

[٢] م.ن : ٢١٩.

يبدو أنّ طريقة تعامل الشاعر الخارجي مع الموت كانت تمثل غاية يسعى لها، وعلى الرغم من الصراع الخفي بين الشاعر وذاته لحب البقاء، إلا أنّ الموت في سبيل المبادئ التي آمنوا بها يبرز واضحًا وجليًّا أمام زيف الحياة، كما عبرت عنه الدوال الشعرية (ويحك لن تراعي، ولم تطاعي، فما نيل الخلود بمستطاع)، فالشاعر هنا يقيم حوارًا مع ذاته إنه حوار الفطرة التي جُبل عليها الإنسان، ولكن عند الخوارج تتلاشى هذه الفطرة لحب البقاء، لتبقى صورة الموت هي الصورة الراسخة والمعبرة عن وجودهم وكيانهم.

ولعل صورة الصراع بين الحياة والموت من أوضح الصور الفكرية التي تركت تأثيرها الواضح على أشعارهم التي هي تجسيد لفكرهم الذي آمنوا به، فالموت هو المتعة الحسية التي يحصلون عليها، وربما لا يقتصر الأمر على المتعة الحسية التي تخلق السعادة، بل نراهم يحصلون على المتعة المادية التي تحققها الحروب والدماء والسيوف، فالموت والحياة هما جوهر الصراع الداخلي لدى الشاعر الخارجي الذي حاول تجسيده برؤية مثالية تتخطى حدود المعقول، ولا تستمد وعيها «من الوعي الفردي فحسب، ولكن من وعي الجماعة أيضًا ... إنّ وعي الجماعة هو المصدر الحقيقي للإلهام»[٢]. فالموت يعطي اللذة والمتعة، يقول عمرو بن الحصين العنبري:

فَنَـــدورُ نَحـــنُ وَهُـــم وَفيمـــا بَينَنـــا كَـــأسُ المنـــونِ تَقـــولُ هَـــل مِـــن شـــارِبِ

لِنَظَـــلَّ نَســـقيهِم وَنَشـــرَب مِـــن قَنـــا ســـمرٍ وَمُرهَفَـــةِ النُّصـــولِ قَواضِـــبِ

جَوفـــاءُ مُنهَـــرَةٌ مَـــرى تامورهـــا ظَبتـــا سِـــنانٍ كَالشِّـــهابِ الثاقِـــبِ

يـــا رَبِّ أَوجِبهـــا وَلا تَـــتَعَلَّقَن نَفـــس المَنـــون لَـــدى أَكُـــفِّ قَرائِـــبِ[٣]

---

[١] ديوان شعر الخوارج: ١٢٢.
[٢] من الوجهة النفسية في دراسة الأدب والنقد، محمد خلف الله: ١٥٣.
[٣] ديوان شعر الخوارج : ٢٥٢.

فمشاعر المتعة واللذة بادية في هذا النص، إنها متعة الموت والتمني من أن ينال ضربة تمزق أحشاءه، وعلى وفق هذا الخطاب تقف الحياة على الطرف النقيض للموت، فتشكل عند الخوارج صراعًا يُظهِر ذاتًا مثابرة غير مبالية بالموت، فتجربة الشعراء تمثل النزوع المطلق نحو بناء تجاربهم الشعرية الصادقة القائمة على التعبير عن الموت بدلالات وألفاظ مختلفة.

تجليات الصراع وتحولاته:

يدرس هذا المبحث طبيعة التحولات التي ترافق الإنسان من التعامل مع واقعه وما يؤمن به من خلال نزوعه لتحقيق أهدافه ولا سيما حين يكون التعامل مع هذه المفردات من شاعر عُرف بتمرده على الواقع، فالشاعر الخارجي تعامل مع هذه المفردات بمعالجات مختلفة عن أقرانه من الشعراء.

. مفهوم الزمان والمكان عند الشعراء الخوارج:

شكّل مفهوم الزمان عند الشعراء الخوارج فسحة للصراع مع الواقع الذي عاشوا فيه فلم يعطه غير الألم والخوف من المجهول، بعيدًا عن ساحات الوغى وفي سبيل المبادئ التي آمنوا بها، يقول الدكتور إحسان عباس معلقًا على مفهوم الزمن عند الشعراء الخوارج: إنّ الشاعر الخارجي «في صراع كبير مع الزمن، وسبيله إلى الانتصار عليه هو الموت ... فيرون أنّ تقصير المسافة متوّج بالموت طواعيةً واختيارًا، نجد لديهم تلك النغمة الشعرية التي تصور استطالة الحياة، أي التبرم بانتصار الزمن»[1]، ومن خلال دراستنا لحياة الخوارج وقراءتنا الشعرية لهم نجد أنّ عامل الزمن كان واضحًا في شعرهم، وهذا نابع من طبيعة حياتهم القلقة والمتحولة باستمرار، وسلوكهم ونمط تفكيرهم الخاص، فكل واحد منهم يرى في الزمن عائقًا نحو تحقيق مبتغاه، وقد مثّل الزمن لديهم مصدرًا إيجابيًّا أيضًا، فهو الذي سيعطيهم فرصة لقاء الأعداء لنيل الشهادة وهذا يتطلب الصبر، فالصراع النفسي لدى الشعراء يظهر بصورة تلقائية وهي مشكلة عامة؛ «لأنّ العلاقات بين الفرد والمجتمع هي مشكلة ذات خصوصية للفن، فهي مشكلة الوجود الإنساني»[2].

والشاعر الخارجي لم يقف من الزمن موقف المواجهة معه، على الرغم من وجود آلية الصراع واضحة معه، فزمن الخوارج هو زمن عالم الروح والموت، لذلك نشب

---

[1] ديوان شعر الخوارج: (التمهيد).٢٣

[2] الوعي والفن، غيور غي غاتشف: ٢٦.

الصراع بين طول البقاء والتعجيل إلى الموت، فهذان ضدان لا يلتقيان عند الخوارج، يقول الحويرث الراسبي:

أَقــولُ لِنَفســي فــي الخَــلاءِ أَلومُهــا هُبِلــتِ دَعينــي قَــد مَلَلــتُ مِــنَ العُمــرِ

وَمِــن عيشَــةٍ لا خَيــرَ فيهــا دَنيّــةٍ مُذَمَّمَــةٍ عِنــدَ الكِــرامِ ذَوي الصَّــبرِ

سَــأَركَبُ حَوبــاءَ الأُمــورِ لَعَلَّنــي أُلاقــي الَّــذي لاقــى المُحَــرَّقُ فــي القَصــرِ[1]

هنا صراع بين البقاء والموت، والزمن بسلطته يبعد الشاعر عن مبتغاه والهدف الذي يضحي بحياته من أجله، لهذا يرى الشاعر الخارجي أنّ «هذا ينبع من الإحساس بأنّ الحاضر واقع قلق يفتقر إلى مكونات حيوية، لا يتحقق بدونها التناغم بين الإنسان وعالمه»[2]. هذا التناغم لا يتم إلا حين يحقق الخارجي مناه الذي يفني حياته في سبيله. ولعل قسوة الحاضر الذي يعيش فيه الشعراء جعله يتمنى على تخطي الماضي غير المرغوب فيه، فالشاعر يحلم بتحقيق هدفه، وهذه الأمنية ليست ذاتية أو أنانية، إنها حلم الجماعة التي ينضوي تحتها.

فالنص السابق يوضح لنا صورة للصراع بين الميل للبقاء وحب اللحاق بالإخوان الذاهبين، ولو نظرنا إليه لوجدنا أنه موقف طبيعي يظهر الميل الإنساني في حب البقاء، ولكن الخوارج لا يخدعون أنفسهم بهذه الأماني وإن كانت تظهر في أشعارهم، فهم يعيشون لحظاتها ليؤكدوا زيف الزمن المعاش من خلال البحث عن الزمن المثال المتحقق بفعل الموت، ومن هنا أخذ الزمن يتحول عند الخوارج إلى فلسفة شكلتها أفكارهم وعقائدهم، فتَشكَّلَ لديهم الزمن النفسي والجماعي، ولم يعد عنصرًا محايدًا في حياتهم، بل أصبح مكونًا للفكر والإيمان المطلق بحتمية فنائه، وبهذا أخذ الزمن يتحول إلى فلسفة لفكرهم، وتنوعت أقسامه باعتبار الذات والوجود، مما أدى إلى تشكيل الزمن النفسي الوجودي الذي ينظر إلى موقف الإنسان من الحياة والموت؛ لأنه واقع تحت تأثير فكره والفناء والتناهي والقدر[3].

---

[1] ديوان شعر الخوارج:٧٧

[2] جدلية الخفاء والتجلي: ٢٦٢.

[3] ينظر: جدلية الزمن، غاستون بلاشر: ١٨٦.

إذن هي الثورة على الحياة والزمن معًا، فهذا الصراع يتجلى بأوضح صوره، حين يسأم الخارجي من هذا الزمن الذي يحول بينه وبين ما يتمناه، فالبُعد الدلالي للزمن يتم تحويله إلى مفردات دلالية قادرة على رسم المجال الشعري في مفهومه الذي يشكل مزاجًا شعريًّا ينطوي على الكثير من الخصوصية التعبيرية التي تجسد تطلعاته.

فالزمن بهذا الوعي يترك آثاره الكبيرة ويمنح الشعراء . على الرغم من التناقض والاختلاف . خبرات لا متناهية، فيدفعهم إلى التفاني في التنافس في سبيل اختصار هذا الزمن والهروب من الواقع المعاش، فهذا الصراع مع الزمن ليس صراعًا مجردًا بل هو اكتشاف للعلاقة الحقيقية بين الفكر والزمن والموت.

ولعل هذا الوعي للزمان يقودنا إلى مفهوم الصراع المعرفي والأيديولوجي الذي شهده الخوارج، والذي رسم طابعًا وجوديًّا لهم ليعبروا من خلاله عن انتصار إرادتهم على الحياة الباطلة الزائفة، لذا كان هاجس الموت على الفراش قلقًا يقض مضاجعهم، لذا كان الزمن بهذا المفهوم شغلاً شاغلاً لهم، فكانت نظرته إليه تتسم بالرفض وإعلان الثورة عليه، لهذا كان الركون إلى الدنيا يمثل صراعًا نفسيًّا حادًّا بينه وبين تطلعاته، لذلك كان هذا الصراع يمثل نقطة رفضٍ لهذا الزمن، يقول:

أَفي كُـلِّ عـامٍ مَرضَـةٌ ثُـمَّ نَقهَـةٌ وَيَنعـى وَلا يُنعـى مَتـى ذا إِلـى مَتـى

وَلا بُـدَّ مِـن يَـومٍ يَجـيءُ وَلَيلَـةٍ يَسـوقانِ حَتفًـا راحَ نَحـوَكَ أَو غَـدا[1]

لذلك كان كلُّ ما يمثل عائقًا أمام الموت مرفوضًا، حتى المرض الذي لا يسوق الأجل هو مرفوض أيضًا، لذلك يمكن فهم الصراع حول الزمن بأنه صراع يتداعى فيه الفكر الرافض، ويمكن وصف هذا الصراع بأنه صراع غير مستقر تتداخل فيه الكثير من الصراعات الأخرى المتجاذبة التي تكشف المعاناة النفسية للذات القلقة والمتشظية.

أما المكان فلم يشغل الخوارج كثيرًا ما دام هذا المكان هو الذي سيكون عونًا للتحقيق المراد، فالمكان يحمل الكثير من لحظات الكشف التي تمثل حدًّا فاصلاً بين الشاعر والمكان، فضلاً عما يثيره المكان من تداعيات ناشئة بفعل عوامل عدة، لعل أبرزها ذلك التواشج الناشئ بين الصراع المكاني والزماني الذي يعبر عن وظيفة نفسية، فالمكان عند الخارجي لا يملكه هو، بل إنّ المكان هو الذي يملك الخارجي ويجسد فيه رؤاه

[1] ديوان شعر الخوارج: ١٧٤.

وأفكاره، ولعل فعل الكينونة التي تشكل حضور هذا الذات المرتبطة بالجماعة، فهي خير مثال على هذا الفعل، فلنستمع إلى الشاعر الخارجي العيزار بن الأخنس:

أَلا لَيتَني في يَومِ صَفّينَ لَم أَؤُب وَغودِرتُ في القَتلى بِصَفّينَ ثاوِيا

وَقُطِّعتُ آرامًا وَأُلقيتُ جُثَّةً وَأَصبَحتُ مَيتًا لا أُجيبُ المُنادِيا

وَلَم أَرَ قَتلى سِنبِسٍ وَلَقَتلُهُم أَشابَ غَداةَ البينِ مِنّي النَّواصِيا

ثَمانونَ مِن حَيَّي جَديلَةَ قُتِّلوا عَلى النَّهرِ كانوا يَخضَبونَ العَوالِيا[1]

إنّ لحظة التكثيف الشعري تبرز في هذا النص من خلال التعالق بين المكان والحلم والأمنية الغائبة في التمني باللحاق بهم، ولعل المكان قد اكتسب وظيفة نفسية تجعل من الموت أمنية؛ لأن الشاعر يتمنى أن يموت معهم، ولعل ولع الشعراء بالموت قتْلاً جعل من المكان غير ذي جدوى ما دام الفعل حاضرًا وهو الموت قتْلاً لا على الفراش، فالمكان مفتوح وغير محدد ما دام يحاكي مطالب الخوارج.

حقيقة أنّ المكان عند الخوارج مكانان: الأول المكان المعاش الذي يقطن فيه الخوارج وهو متصل بالشقاء والأسى، ومكان آخر هو المكان الحلم الذي يموت الخوارج من أجله، إنها الجنة، طريقها الموت طعنًا بالسيف، فهي حياة والحياة موت، وهذا المكان الخاص الذي ارتضاه الخوارج، ويتحدى الشعراء الخوارج المكان المعاش من خلال إصرارهم على المكان الحلم، ففيه سيعيشون حياة آمنة مطمئنة بعيدة عن شرور المجتمع وزيف الدنيا، يقول الشاعر الخارجي عتبان بن أصيلة:

لَعَمري لَقَد نادى شَبيبٌ وَصَحبُهُ عَلى البابِ لَو أَنَّ الأَميرَ يُجيبُ

فَأَبلِغ أَميرَ المُؤمِنينَ رِسالَةً وَذو النُّصحِ لَو تُصغي إِلَيهِ قَريبُ

أَتَذكُرُ إِذ دارَت عَلَيكَ رِماحُنا بِمَسكِنَ وَالكَلبِيُّ ثُمَّ غَريبُ

فَلا صُلحَ ما دامَت مَنابِرُ أَرضِنا يَقومُ عَلَيها مِن ثَقيفَ خَطيبُ[1]

[1] م. ن: ٤٥.

المكان هنا حسب رؤية الخوارج مكان عام ليس فيه شيء مما يتمناه الخوارج، فالانكفاء تحت نير هذا الأمير الظالم يؤدي إلى مزيد من عدم الاستقرار المكاني كما تجسده الدوال (ما دامت منابر أرضنا). لقد صارع الخوارج الظلم بكل أشكاله، فمكانهم حافل بالأذى والظلم، وهذا الظلم يدفعهم إلى مزيد من البذل للنفوس من أجل التحقيق والوصول إلى المكان الحلم. وهذا «يعني أنّ عزة المكان تقترن بعزة أهله»[٢]، فضياع المكان هو ضياع للحلم والمبادئ التي ناضل من أجلها الخوارج.

.جدلية الرؤيا بين الذات والجماعة:

الذات الخارجية ليست ذاتًا فردية بل هي ذات جماعية تذوب في الجماعة، وتشكل هذه الرؤية من الذات (الأنا) والآخر (الجماعة) على أنّ تقدم هذه الذات نفسها على أنها ذات فردية لا تقوم إلا مع الجماعة وتنطوي على الكثير من المبادئ التي تحددها فلسفتها للحياة.

إنّ محاولة الوقوف عند مفهوم الذات والجماعة عند الخوارج تفتح آفاقًا رحبة في إشكالية العلاقة بينهم، لذا يمكن القول إنّ ما يميز فلسفة الخوارج أنّ عقيدتهم جعلت من الموت سببًا للخلاص من أدران هذه الحياة، لذلك عبروا عن ذلك بمختلف الصور، مما جعلهم يرون أنفسهم مميزين عن الآخرين لهذا قامت هذه القراءة على استكشاف صور الجدل بين الصراع القائم بين الذات والجماعة من خلال رصد المكونات الدلالية للعلاقات اللغوية والكشف عن العلاقات المتشابكة بينها.

ويقف الخوارج في طليعة الشعراء في قدرتهم على التماهي مع الذات سواء أكانت ذاتًا فردية أم جماعية تتسم بطابع الجدل، ويمكن القول إنّ الذات الشعرية للخوارج تقع تحت تأثير الرؤية الشعرية التي تجسد المفهوم الجماعي لهم.

إنّ مفهوم الصراع هنا يبرز في قدرته على إحداث ما يعرف بعلم النفس بصراع (الإقدام الإقدام)[٣]، أي إنّ تصارع الذات يتمثل في فوزها بما تبحث عنه من فوز ونجاح، أي هذا ما تبحث عنه الذات والجماعة معًا، وأيضًا الإقدام في سبيل الجماعة من أجل إعلاء كلمتهم وله قوة جذب نحو الآخرين دون ترك الآخر أو حجره.

---

[١] ديوان شعر الخوارج: ٢٠٠.

[٢] ظاهرة الصراع في النص العربي قبل الإسلام (أطروحة دكتوراه)، عبد الجبار حسن علي الزبيدي: ١٧٩.

[٣] أي إنّ الصراع يكون مزدوجًا بين الذات والجماعة كلٌّ يريد تحقيق الهدف للآخر. ينظر: علم النفس الاجتماعي: ٤٧.

إذ يقدم (الآخر) كبديل عن الأنا فتذوب الأنا، فكلٌّ منهم يريد أن ينال الآخر، ولكن ليس قبل صاحبه، وتعتري هذه الرؤية الكثير من الصراعات النفسية حين نرى تلك الذات بأنّ الآخر قد تقاعس في سبيل الواجب فتظهر له الصواب وتحاول تغييره برؤية جديدة تجسيدًا لعلاقات فكرية أخرى، فإذا «كان التعبير عن الانفعال شكلاً من أشكال التعبير عن الذات فإن استثارة الانفعال من الآخرين لا شك شكل من أشكال التعبير عن الذات»[١]، ويمكن أن نقف عند بعض تلك الشواهد الشعرية، يقول قطري بن الفجاءة:

وَرُبَّ مَصـــاليتٍ نَشـــاطٍ إِلـــى الـــوَغى سِـــراعٍ إِلـــى الـــداعي كِـــرامِ المَقـــادِمِ

أَخَضـــتُهُمُ بَحـــرَ الحِمـــامِ وَخُضـــتُهُ رَجـــاءَ الثَّـــوابِ لا رَجـــاءَ المَغـــانِمِ

فَأُبنـــا وَقَـــد حُزنـــا الثَّـــوابَ وَلَـــم نُـــرِد سِـــوى ذاكَ غُنمًـــا وَابتِنـــاءِ المكـــارِمِ[٢]

المعروف أنها ذات فردية تعمل على تحقيق ما تصبو إليه بما أنّ (قطريًّا) هو أحد قادة الخوارج، مما يعني أنها ذات مؤثرة لكن هذه الذات لا تريد لنفسها الثناء فحسب، إنما هناك صراع من أجل الجماعة وإعلاء كلمتها، وهذا الصراع يدفع الفرد إلى تأكيد هوية الجماعة، ولعل هذا ما عبرت عنه الدوال الشعرية (أَخَضتُهُمُ وَخُضتُهُ، وأُبنا ولم نُرد)، فإنّ هذا النموذج المعبر عن الذات بشقيها الفردي والجماعي شكّل جدليةً رافقت الشعر الخارجي كله، ففي النص نلاحظ أنّ الكلمات والأفعال أدت دورها في التعبير عن ذلك، وفتحت الباب واسعًا أمام التأملات، وقد أصبحت الدلالات فاعلة تنطوي على الكثير من آليات تشكيل الرؤية وتحديد المنطلقات الأساسية التي تربط الشاعر بعالمه الذي يتجسد على أساس من التحول في تشكيل رؤية الواقع الذي ينضوي تحته، وهذا الخطاب الجمعي هو ما نتلمسه في كثير من نماذج الشعر الخارجي[٣]، فهذا القائد الخارجي لا يفرق عن بقية جنده فهو واحد منهم، ومن المعلوم أنّ الموت والإحساس به تكون فردية، لكن عندهم هي شعور جماعي ورغبة ملحّة، يقول الطرماح بن حكيم:

وَإِنّـــي لَمُقتـــادٌ جَـــوادي وَقـــاذِفٌ بِـــهِ وَبِنَفســـي العـــامَ إِحـــدى المَقـــاذِفِ

---

[١] خمسة مداخل إلى النقد الأدبي، تصنيف ديلبر سكوت: ٨٩.
[٢] ديوان شعر الخوارج: ١٣٣.
[٣] ينظر: شعر الخوارج دراسة أسلوبية: ٥١.

لأَكسِـــبَ مـــالاً أَو أَؤولَ إِلـــى غِنًـــى مِـــنَ اللهِ يَكفينـــي عُـــدَاةَ الخَلائِـــفِ[١]

فالآخر في شعر الخوارج لا يقدم إشكالية بل إنها ذات فردية تذوب في الجماعة وتقود إلى إبداعات خصبة ثرية، فمن أهدافهم المباشرة والسعي في إيجاد توازن بين القصدي والإفهام الشعري ومن خلال التلاقح بين الإفهامي والشعري يجسدون إبداعاتهم ومعاناتهم الفكرية والنفسية، فالذات الفردية تقدم نفسها على أنها ذات مثقلة بالهموم، وهذه الهموم هي هموم الفكر الجماعي الذي يجسد التجربة النفسية المعاشة التي تجسد أحلامهم وقضاياهم وإشكاليتهم مع العالم، وكل ذلك يتجسد من خلال استثارة المشاعر والأحاسيس.

والقارئ لشعر الخوارج يرى أنهم يعملون على تغيير الواقع، والذي هو بنظرهم واقع سيئ لا يمكن إصلاحه إلا بالسيف، لذلك نرى الخارجي كثير الهم والشكوى، والخوف ليس الخوف بمعناه الحرفي لكنه خوف آخر من المجهول الذي ربما يسلبهم حياتهم قبل أن تحقق أحلامهم التي ناضلوا من أجلها، فإنّ أي انكسار للذات هو انكسار للجماعة والعكس صحيح، وعلى الرغم من أنّ الذات الفردية تذوب في الجماعة وتتناغم معها فإنها لا تطرح إشكالية أو شعورًا بالتفاوت، فلا نرى الإحساس بالتفوق أو التفرد، بل بالعكس تذوب كل الفوارق ويبقى الشعور الجمعي والانتماء الواعي بين الذات والجماعة هو الذي يجسد الرؤية الخارجية، ولكن الصراع يبرز هنا من خلال الخوف على المصير الجمعي أو التخاذل في طلب الموت الذي هو أمنية كل خارجي، فجدلية الخطاب الجمعي الذي عبّرت عنه الأبيات السابقة إذ تذوب كل من ذات الشاعر وفعل الخطاب الجمعي لتجسد الكينونة الإنسانية التي تشكل فكر الخوارج وفلسفتهم.

وفي ظل هذه الانثيالات النفسية والفكرية تصبح قصائدهم تجسيدًا لرؤية قائمة بذاتها تختلط فيها مشاعر الفردية مع الذات الجماعية فتشكل كتلة من التصورات المتلازمة التي تؤدي دورها في رسم واقع الخوارج المليء بالكثير من الأفكار والتصورات.

فالخطابات الخارجية التي تجعل من رؤية الذات رؤيةً للآخر تندرج تحت ما يسميه الدكتور إحسان عباس بـ(وحدة الخصائص)، فكل واحد منهم يمكن أن يقال فيه ما يقال للآخرين وهذه الخصائص تتمثل في كل فرد على حدة كما تتمثل في الجماعة[١].

[١] ديوان شعر الخوارج: ٢٦٤.

وعلى هذا النحو تتشكل قصيدة الخوارج، فهي قائمة على إزالة كل ما يعترض تحقيق أهدافهم، فالشاعر عندهم يطالب بأن يجعل من قصيدته تؤثّر في النفوس وتجذب إلى فكرهم الناس، ويبرز (الموت) ذلك الأفق الروحي الذي يحلق حوله الخوارج، فإن إلحاحهم على هذا الجانب كان دافعًا إلى أن تشكل فيها هوية الخوارج لتجسيد (دراما الموت) الذي جعلوه الغاية الأسمى والأمنية التي يتمنونها جميعًا.

وإننا لو أردنا أن نجعل للخوارج سمة بارزة وفكرًا خاصًّا بهم لكان الموت هو الأساس الذي شكّل فلسفتهم، لذا يجب أن يتعامل الباحث مع هذا الواقع على أنه يقع تحت ما سماه علماء النفس بـ (التماهي)، وهي عملية نفسية تتمثل فيها الذات جانبًا من جوانب الآخرين وتتحول جزئيًّا أو كليًّا على وفق النموذج الذي يقدمه الآخر، أي إن التماهي يذوب الفرد في الجماعة لتشكيل هوية ثقافية أو اجتماعية أو دينية واحدة، ويقدم هذا النموذج بُعدًا في تماهي الذات مع الجماعة، فإنّ انفتاح هذه الجدلية إنما يكون من الداخل والخارج في انفتاحها وتحولها وصيرورتها ووقوعها بدلاً عن ذلك في وهم التجربة والرؤيا أو في أسس التجربة والرؤية المغلقة بوصفها انغلاقًا على الذات والآخر، وعلى وفق هذا المفهوم يكون الشاعر أكثر تطرفًا في الانغلاق على الآخر، يقول الشاعر الأصم الضبي:

إنّــي أَديــنُ بِمــا دانَ الشَّــراةُ بِــهِ يَــومَ النَّخيلَــةِ عِنــدَ الجَوسَــقِ الخَــرِبِ

النــافِرينَ عَلــى مِنهــاجِ أَوَّلِهِــم مِــنَ الخَــوارِجِ قَبــلَ الشَــكِّ وَالرِيَــبِ

قَومًــا إِذا ذُكِّــروا بِــاللهِ أَو ذَكَــروا خَــرّوا مِــنَ الخَــوفِ لِلأَذقــانِ وَالرُّكَــبِ[٢]

فالشاعر هنا يتماهى مع الجماعة (الخوارج)، فهو فرد منها لا يفصله عنها شيء، ولعل الدوال الشعرية في مثل قوله: (أدين بما دان) التي ابتدأت بها الأبيات عبّرت عن تلك الفلسفة خير تعبير، فهم على درب أسلافهم من عبادات وتقوى وورع، وهو جزء من كيانهم الديني الملتزم والمشوب بالغلو والمبالغة الشديدة أحيانًا، فهو جزء من الفلسفة التي آمنوا بها وضحوا من أجلها بالكثير.

---

[١] ينظر: ديوان شعر الخوارج: (التمهيد): ٢٠.
[٢] ديوان شعر الخوارج: ١٣٩.

إنّ الرؤية الفلسفية والفكرية للخوارج تميل إلى قراءات متعددة، فكل مفردة قادرة على تشكيل الوظيفة الفكرية والاندماج مع الوحدات المكونة للنص، فلا نجد ما يسمى عندهم بأزمة البحث عن الهوية[١]، فالروابط التي تشد نسيج المجتمع الخارجي تتعالق فيما بينها، فالذات الفردية تستحضر الجماعة سواء أكان ضمن الرؤية ذات البعد المتعدد لسياق النص أم كانت الرؤية قائمة بين صراع الشاعر مع ذاته ضمن السياق المكون للنصوص الشعرية، وعلى الرغم من ذاك يبقى الشعر الخارجي خيرَ معبّر عن فكرهم وفلسفتهم.

.جدلية الواقع المعاش بين القبول والرفض:

إنّ فكر الخوارج ثورة على كل شيء يخالف عقيدتهم سواء أكان في الحياة الدينية أم الاجتماعية، فقد حملوا لواء الثورة على واقعهم المعاش بكل صوره وأشكاله، لذا كان الواقع المعاش في ظل الدولة الإسلامية مثار جدل عند الخوارج، إذ أرادوا أن يطبقوا نموذجهم الديني والسياسي على كل البلاد الإسلامية، فهم يرون أنّ الخليفة ليس شرطًا أن يكون قرشيًّا أو حتى عربيًّا، المهم أن يكون تقيًّا صالحًا، فضلاً عن تكفيرهم بعض المسلمين إذ رأوا أنهم خارجون عن الدين[٢]، فأدى إلى بروز الصراع جليًّا بين فكرهم والفكر الآخر، مما ولّد إشكالية على مستوى الدين والسياسة فأدى ذلك إلى الحروب التي راح ضحيتَها الكثير.

فالشاعر الخارجي قد تعامل مع هذه التناقضات وكشَفها لكن بفكرهم، فكان كل ما يخالف نهجهم خارجًا عنهم فأدى ذلك إلى رفض الآخر كليًّا ما دام لا ينتمي إلى فكرهم، وقد كان المجتمع الخارجي قد تعامل مع هذا الصراع بمعيارية الواقع الديني والسياسي ولا سيما أن الخوارج تحكم عقيدتَهم مجموعة من القوانين والأفكار، لذا لا نجد تقلبًا في المواقف والأفكار، فلم تكن المؤثرات والمغريات قادرة على استمالة قلوبهم بل وصل الخوف منهم على قلوب الناس حتى إنّ عبد الله بن زياد كان يقول: «إنّ لكلام هؤلاء (يعني الخوارج) أسرع إلى قلوب الناس من النار إلى اليراع»[٣]، لذلك كان المجتمع الخارجي مجتمعًا يريد تطبيق نموذجه على من هم خارجه، لذا كان من الصعب لمن انتمى إليهم أن يحاول الخروج فيقومون بتوجيهه وبيان أن مصيره إلى النار، فنشأ نوع من الصراع بين المنتمي إليهم واللامنتمي، ونتلمس ذلك في قول قطري بن الفجاءة:

---

[١] ينظر: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، عبد المنعم حنفي: ٣٧٩/١.
[٢] ينظر: رسائل الجاحظ، الجاحظ: ٧/٢.
[٣] الكامل في اللغة والأدب: ١٤٧/٣.

لَشَـتّانِ مـا بَـينَ ابـنِ جَعـدٍ وَبَينَنـا إذا نَحـنُ رُحنـا فـي الحَديـدِ المُظـاهَرِ

نُجالِـدُ فُرسـانَ المُهَلَّـبِ كُلُّنـا صَـبورٌ عَلـى وَقـعِ السُّـيوفِ البَـواتِرِ

وَراحَ ابـنُ جَعـدِ الخَيـرِ نَحـوَ أَميـرِهِ أَميـرٍ بِتَقـوى رَبِّـهِ غَيـرِ آمِـرِ

فَراجِـع أَبـا جَعـدٍ وَلا تَـكُ مُغضِـيًا عَلـى ظُلمَـةٍ أَعشَـت جَميـعَ النَّـواظِرِ

وَتُـب تَوبَـةً تُهـدي إِلَيـكَ شَـهادَةً فَإِنَّـكَ ذو ذَنـبٍ وَلَسـتَ بِكـافِرِ[١]

الخطاب الشعري الخارجي يقوم على عرض فلسفة الخوارج وفكرهم، فالذات فاعلة وموجهة للطريق الصواب وأي شخص خارج هذه المنظومة مرفوض وعليه الندم والتوبة للرجوع، فالبُعد الفكري للنص يقوم بعرض رؤية الخوارج التي هي واقع على الجميع القبول به، مما دفعهم إلى جعل فكرهم النموذج الذي يُحتذى به مما دعاهم إلى إعلان الحرب والثورة على كل مَن خالفهم، فكان الواقع الاجتماعي والديني والسياسي الذي شكّل فكرهم جعلهم منبوذين أينما حلّوا بعد أن كفّروا الجميع. فكان تعامل الشاعر الخارجي مع هذا الواقع ليس على وفق تصوراته الخاصة ولكن على ما يمليه فكره ومذهبه، مما جعلته يجسد في كل أشعاره أفكار المذهب، وبالمقابل نجد أنّ جميع الخوارج متفقون أنهم هم على حق وأنّ الآخرين أصحاب فكر باطل. فكل هذه الأمور قد ارتقت بالصراع إلى أبعد حدوده وجعلت الشاعر يحمل هذا الصراع ليجسد المواجهة بينه وبين ما يخالف عقيدتهم، وعلى الرغم من هذا كله تبقى النوازع الذاتية تخضع لعوامل مختلفة تحدد رؤيته، وهذا «ما يمنح الدارس العمل الشعري مساحة عريضة يتحرك فيها؛ لكي يتحدث عن سر ذلك الاختيار وطبعه ووظيفته»[٢].

ونتلمس في قصيدة قطري بن الفجاءة إلى (سميرة بن الجعد) ما يجسد ذلك، يقول:

فَمَـن مُبلِـغُ الحجّـاجِ أَنَّ سَـميرَةً قَلـى كُـلَّ ديـنٍ غَيـرِ ديـنِ الخَـوارِجِ

---

[١] ديوان شعر الخوارج: ١٣٥.
[٢] جدلية النص، د. محمد فتوح (بحث) مجلة عالم الفكر: ٥٢.

رَأى النـــاسَ إلّا مَـــن رَأى مِثـــلَ رَأيِـــهِ مَلاعـــينَ تَـــرّاكينَ قَصـــدَ المَنـــاهِجِ

فَـــأَيُّ امـــرِئٍ أَيُّ امـــرِئٍ يـــا ابـــنَ يوسُـــفٍ ظَفَـــرتَ بِـــهِ لَـــم يَـــأتِ غَيـــرَ الـــوَلائِجِ

إِذَن لَرَأَيـــتَ الحَـــقَّ مِنـــهُ مُخالِفًـــا لِـــدينِكَ أَن كُنـــتَ امـــرَأً غَيـــرَ فـــالِجِ[1]

على الرغم من أنّ النص فيه تهجّم على الحجّاج وكون سميرة عنده، لكن حين يبعث إليه قطري يعود سميرة نادمًا على الذي جرى منه، فهذا هو الولاء المطلق للمذهب والانتماء له، فجدلية الواقع الآخر مرفوضة، لذلك فإنّ طبيعة الصراع الفكري في الواقع المعاش بين القبول والرفض كان مثار قلق بين أبناء هذا المجتمع وبين الثورة التي حملوا لواءها، وهذا يشير بوضوح إلى أنه على الرغم من الولاء المطلق والبحث عن الموت كانت تأتي ساعات يصارع فيها الشاعر مرارة الواقع المظلم الذي لا يعرف ماذا سيفعل بالذين بعده، فمنهم من سوف يترك خلفه ذرية ضعفاء لا معيل لهم من بعده، فقد حاول الشاعر الخارجي أن يجعل من رسالته دائمًا ذات تأثير على متلقي شعره، فكانت رؤيته تحدد معالم الواقع وتُظهر أيديولوجيته في ظل ظروف صعبة وصراع مرير مع واقع مرفوض، وكون شعره رسالة لـ «حالة ذهنية وصفية معنوية في مشاهد بيئية؛ وذلك لحرصهم على الوضوح والإبانة ولتكون أشد وقعًا وتأثيرًا على المتلقي»[2]، فالصراع بين الواقع المعاش مما فيه من مغريات ونداء الواجب يجعل الشاعر في دوامة من الأحاسيس، يقول الشاعر عيسى بن فاتك:

لَقَـــد زادَ الحَيـــاةَ إِلَـــيَّ حُبًّـــا بَنـــاتي إِنَّهُـــنَّ مِـــنَ الضِّـــعافِ

مَخافَـــةَ أَن يَـــرَينَ البُـــؤسَ بَعـــدي وَأَن يَشـــرَبنَ رَنقًـــا غَيـــرَ صـــافِ

وَأَن يَضـــطَرَهُنَّ الـــدَّهرُ بَعـــدي إِلـــى جَلِـــفٍ مِـــنَ الأَعمـــامِ جـــافِ

[1] ديوان شعر الخوارج: ١٣٦.
[2] الصورة البيانية في الشعر العربي (أطروحة دكتوراه)، ساهرة عبد الكريم: ١٧٣.

فَلَـــولا ذاكَ قَـــد سَـــوَّمتُ مُهـــري وَفـــي الـــرَّحمنِ لِلضُّـــعَفاءِ كـــافِ[١]

إنه صراع نفسي وفكري، فالشاعر هنا واقع بين دوامتين نداء الواجب والخوف على بناته، ومن خلال هذا الإحساس يأتي الصراع ليحدد طابع المجتمع الخارجي وتطلعاته، فهذه الرؤية تحدد الأزمات التي كان يعيشها الشاعر وقد قاد ذلك إلى منهجية حوارية بين الشاعر وذاته وبين الشاعر والآخر، وهذا المنحى الجدلي للصراع قد خضع لفكر الشاعر ومذهبه وواقعه المليء بالتناقضات التي أفرزتها الحياة الدينية والسياسية.

وهكذا قد أكد البحث أنّ الصراع الجدلي في شعر الخوارج ينطلق أولاً وآخرًا من موقفٍ عقائدي شكّل أساس مذهبهم، وقد تجلى صراعهم الفكري والنفسي والاجتماعي بكل مفاصل حياتهم، وهذه الفلسفة الخاصة التي طبعت منهجهم في الحياة كانت الخصيصة النصية لهم في تعاملهم مع الواقع بكل تجلياته وتحولاته، وهذه الخصيصة ولدت التجربة القلقة التي توارى خلفها الشعراء، ولا ننسى الزمن الوجودي والاجتماعي الذي لم يكن غائبًا في تشكيل فلسفتهم الوجودية الاجتماعية التي جسدت عمق معاناتهم النفسية التي عاش في ظلها الخوارج.

المصادر والمراجع

١. الإبداع في الفن، قاسم حسين صالح، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط٢، ١٩٦٢.
٢. جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر، كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
٣. جدلية الزمن، غاستون بلاشر، ترجمة: خليل أحمد خليل، الجزائر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٨م.
٤. جدلية النص، د. محمد فتوح أحمد، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، ع٣-٤، الكويت، ١٩٩٤.
٥. حركية الصراع في القصيدة السياسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ناظم حمد السويداوي، أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية التربية . جامعة الأنبار، ٢٠٠٧.

[١] ديوان شعر الخوارج: ٧١.

٦. خمسة مداخل إلى النقد الأدبي، تصنيف: ويلير سكوت، ترجمة ونقد: د. عناد غزوان وجعفر الخليلي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١.
٧. ديوان شعر الخوارج، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الشروق، بيروت، ط٤، ١٩٨٢.
٨. شعر الخوارج دراسة أسلوبية، د. جاسم محمد عباس، دار دجلة، عمان، ٢٠١٠.
٩. الصورة البيانية في الشعر العربي وأثر البنية فيها، ساهرة عبد الكريم، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٤.
١٠. ظاهرة الصراع في الشعر العربي قبل الإسلام، عبد الجبار حسن علي الزبيدي،
١١. علم النفس الاجتماعي، شاكر محاميد، دار المدى، عمان، ٢٠٠٣.
١٢. الفرق الإسلامية في العصر الأموي، د. النعمان القاضي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠.
١٣. فن الشعر، أرسطو، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٣.
١٤. قاموس علم الاجتماع، د. محمد عاطف عفيفي، كلية الآداب، الإسكندرية، دار المعرفة، ١٩٧٩.
١٥. من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله، المطبعة العالمية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠.
١٦. الوعي والفن، غيورغي غاتشف، ترجمة: د. نوفل بيوق، مراجعة سعد مصلوح، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠.
١٧. نظريات الشخصية، كالفين هول، ترجمة: فرج أحمد فرج وقدري حنفي، دار الشايع للنشر، القاهرة، الكويت، ط٢، ١٩٧٨.